غزوات المصطفى ﷺ

(١٥)

غَزْوَةُ تَبُوكَ..

(العُسْرَةِ)

الدكتور

محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

بِكُلِّ صَرَاحَةٍ!!

بَلَغَ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم خَبَرٌ مَفَادُهُ : أَنَّ الرُّومَ قَدْ أَعَدَّتْ جَيْشاً جَرَّاراً بِقِيادَةِ هِرَقْلَ ، وَيُؤازِرُهُمْ بعْضُ القَبَائِلِ العَرَبِيَّةِ (لَخْم ، وَعَامِلة ، وَغَسَّان ، وَجُدام) حتىٰ بَلَغَ عَدَدُهُمْ قُرَابَةَ مِئَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ ، وَذٰلكَ بِهَدَفِ القَضَاءِ عَلَىٰ المُسْلمينَ في المدينةِ المنوَّرَةِ!

فَوَقَفَ الرَّسُولُ يُفَصِّلُ ـ وَعَلَىٰ غَيْرِ عَادَتِهِ فِي بِدَايَاتِ التَجْهِيزِ لِلْمَعْرَكَةِ ـ :

إِنَّ وُجْهَتَنَا إِلىٰ مَدِيْنَةِ تَبُوكَ عَلَىٰ حُدودِ الشَّامِ ، وَتَرَوْنَ أَنَّ الجَوَّ حَارٌّ جِداً ، وَالوَقْتَ وَقْتُ

جَنْيِ المَحَاصِيلِ الزِّرَاعِيَّةِ .

وَلَكُمُ الخِيَارُ ؛ فَمَنْ أَرَادَ فَلْيَتْبَعْنَا ، وَمَنْ أَبىٰ فَلْيَتَخَلَّفَ عَنَّا!!

فَرَاحَ بَعْضُ المُنافقينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنَ الصَّفِّ ، وَيَحْتَجُّونَ بِحُجَجٍ وَاهِيَةٍ ، وَيَعْتَذِرُونَ بِالمَرَضِ أَوْ بِنِيَّةِ الذَّهَابِ لِلْحَجِّ وَمَا إِلَىٰ هُنالِكَ .

مِصْداقُ ذٰلكَ قَوْلُه تَعَالَىٰ : ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة : ٤١-٤٢] .

وتَجَمَّعَ مِنَ المُسْلِمينَ قُرابَةَ ثَلاثِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ .

إِنْفَاقٌ لاَ مَثِيلَ لَهُ!!

وَرَاحَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم يَحُضُّ المُسْلِمينَ عَلَىٰ الإِنْفَاقِ في سَبيلِ اللهِ ، وَذلكَ لِتَجْهِيزِ جَيْشِ العُسْرَةِ ، مِصداقُ ذَلكَ قَوْلُهُ : « مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ » .

وَقَوْلُهُ : « يَا مَعْشَرَ المُهاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، إِنَّ مِنْ إِخْوَانِكُمْ قَوماً لَيْسَ لَهُمْ مَالٌ وَلاَ عَشِيرَةٌ ، فَلْيَضُمَّ أَحَدُكُمْ إِلَيْه الرَّجُلَيْنِ أَوِ الثَّلاثَةَ » .

وَسَطَّرَ المسلمونَ أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ في البَذْلِ وَالعَطَاءِ وَالإِنْفَاقِ .

فَتَبَرَّعَ عُثمانُ رضِيَ اللهُ عنهُ بِثلاثِمئةِ بَعيرٍ

مُجَهَّزَةٍ تجهيزاً كامِلاً ، وَفوقَها تَبَرَّعَ بِمِئَةِ أَلْفِ دِيْنَارٍ ذَهَبِيٍّ!!

فقالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « مَا عَلَىٰ عُثمانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هٰذِهِ ، غَفَرَ اللهُ لَكَ يا عُثمانُ مَا أَسْرَرْتَ وَمَا أَعْلَنْتَ وَمَا أَخْفَيْتَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، مَا يُبالي عُثمانُ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا » .

وَأَمَّا عبدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عنه ؛ فَجَاءَ بِالأَمْوَالِ وَوَضَعَها بَيْنَ يَدَيِ الرَّسُولِ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، عِنْدِي أَرْبَعَةُ آلافٍ ، أَلفانِ أَقْرَضْتُهُمَا رَبِّي وَأَلْفَانِ لِعِيالي .

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَبَارَكَ لَكَ فيما أَمْسَكْتَ » .

وَأَمَّا عُمَرُ رَضِي اللهُ عنهُ فيقولُ : لمَّا أَمَرنا

رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ نَتَصَدَّقَ ، فَوَافَقَ ذَلكَ مالاً عِنْدِي ، فَقُلْتُ : اليومَ أَسْبِقُ أَبَا بكرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوماً ، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مالي .

فقالَ لي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ » قُلْتُ : مِثْلَهُ .

وَأَتىٰ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ .

فقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ » .

قالَ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ!! ، فَقُلْتُ : لا أَسَابِقُكَ إِلَىٰ شَيْءٍ أَبَداً .

وَحَتَّىٰ النِّسَاءِ فَقَدْ تَصَدَّقْنَ بِالحُلِيِّ وَمَا إِلىٰ هُنالِكَ .

* * *

وَأَمَّا المُنافِقُونَ...؟!

وَلَمْ يَكْتَفِ المنافقونَ بَتَخَلُّفِهِمْ عَنِ اللَّحَاقِ بالجَيْشِ ، بَلْ رَاحُوا يُثَبِّطُون هِمَمَ المُسْلمينَ ، وَيُضْعِفُونَ العَزَائِمَ ، وَيُشيعُون عَنْ قُوَّةِ الرُّومانِ وَصُمودِهِمْ في المَعَارِكِ ، حتَّىٰ إنَّ زَعِيمَهُمْ (عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ) راحَ يَقُولُ بينَ صُفوفِ المُسْلمينَ : يَغْزُو مُحَمَّدٌ بَني الأَصْفَرَ - الرُّومَ - مَعَ جَهْدِ الحَالِ وَالحَرِّ وَبُعْدِ السَّفَرِ!

أَيَحْسَبُ مُحَمَّدٌ أَنَّ قِتَالَ بَني الأَصْفَرَ مَعَهُ اللَّعِبُ! وَاللهِ لكأنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ مُقَرَّنينَ بِالحِبَالِ!

وأَنْزَلَ الله تَعَالىٰ قولَهُ الَّذي يَفْضَحُ ما يقومُ بِهِ المنافقونَ :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

[التوبة : ٨١-٨٢] .

* * *

صَدَقُوا اللهَ... فَتَابَ عَلَيْهِمْ

وَتَخَلَّفَ مِنَ المُسْلِمينَ ثَلاثَةٌ دُونَ عُذْرٍ، وَهُمْ: (كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ) وَ(هِلالُ بْنُ أُمَيَّةَ) وَ(مُرارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ).

وَهؤلاءِ لَمْ يَفْعَلُوا كَمَا فَعَلَ المُنافِقُونَ، حَيْثُ رَاحُوا يَخْتَلِقُونَ الأَعْذَارَ وَالحُجَجَ، وَيَحْلفونَ بِاللهِ عَلَىٰ ذلك! إِنَّما صَدَقَ هٰؤلاءِ مَعَ اللهِ، فَتَقَبَّلَ اللهُ مِنْهُمْ، وَتَابَ عَلَيْهِمْ، مِصداقُ ذٰلكَ قَوْلُه سُبْحَانَهُ:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا

كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ
بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ
إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ
أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

[التوبة: ١١٧-١١٩].

* * *

فَأَيْنَ الرُّومُ الأَشِدَّاءُ ؟!

وَلمَّا وَصَلَ المُسْلِمونَ إلىٰ مَدِينَةِ (تَبُوكَ) لَمْ يَجِدُوا أَحَداً مِنَ الرُّومِ هُنالِكَ ، ذلكَ لأَنَّ الرُّومَ لَمَّا بَلَغَهُمْ أَنَّ المُسْلِمِيْنَ : يُصَلُّونَ اللَّيْلَ ، وَيَصُومونَ النَّهارَ وَيُجاهِدُونَ فيهِ ، وَيَتَناصَفُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، صَغيرُهم ككبيرِهِم ، جُنْدِيُّهم كَقَائِدِهِمْ ، يَهْجُمونَ علىٰ الموتِ وَلا يخافونَ مِنهُ ، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذلك كُلُّهُ ، خَافُوا ، وانْسَحَبُوا إلىٰ القِلاعِ وَالحُصُونِ في بلادِ الشَّامِ .

فنزلَ المُسْلمونَ في تبوكَ ، وَأقاموا فيها بِضْعَةَ عَشَرَ يوماً ، وَكانتْ أَنْباءُ هروبِ الرُّومانِ

مِنْ تبوكَ تُرْعِبُ قلوبَ القَبَائِلِ ، لذلكَ أَرْسَلَتْ غَالِبِيَّةُ القبائِلِ مندوبينَ عَنْها إلىٰ رَسُولِ اللهِ ، وَذلكَ بهدفِ الصُّلْحِ .

مِثَالُ ذلكَ : مَا كانَ مَعَ صَاحِبِ أَيْلَةَ (يُحَنَّةَ بنِ رُؤْبَةَ) ، حيثُ صَالَحَ رَسولَ اللهِ علىٰ أَنْ يَدْفَعَ جزيةً سَنَوِيَّةً مِقْدارُهَا ثلاثُمئةِ دينارٍ ، وَكَتَبَ لَهُمُ الرَّسُولُ كتابَ أَمَانٍ ، جَاءَ فيهِ : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ ، هٰذِهِ أَمَنَةٌ مِنَ اللهِ وَمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ لِيُحَنَّةَ بْنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ ، سُفُنِهِم وَسيَّارَتِهِم في البَرِّ وَالبَحْرِ ، لَهُمْ ذِمَّةُ اللهِ ، وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ، وَمَنْ كانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ اليَمَنِ ، وَأَهْلِ البَحْرِ ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُم حَدَثاً فَإِنَّهُ لاَ يَحُولُ مالُهُ دونَ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّهُ لا يَحِلُّ أَنْ

يُمْنَعُوا مِنْ ماءٍ يُريدُونَهُ وَلا طريقٍ يُريدونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ » .

* * *

وَعادَ المُسْلمونَ إلىٰ المَدينةِ المنوَّرَةِ

ولمَّا اسْتَشَار الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم مَنْ مَعَهُ بِمُلاحَقَةِ الرُّومِ في بلادِ الشَّامِ ، أوِ العَوْدَةِ إلىٰ المدينةِ ، وَقَعَ الاختيارُ أخيراً علىٰ مَشُورةِ عُمَرَ رَضي الله عنْهُ ، وَهِيَ العَوْدَةُ إلىٰ المَدِينةِ ، وَلمَّا وَصَلَ خَبَرُ عَوْدَةِ المُسْلِمينَ ظَافِرِينَ غَانِمينَ إلىٰ أَهْلِ المَدِينَةِ ، خَرَجوا يُنْشِدُونَ ترحيباً بالرَّسُولِ وبالمسلمينَ :

طَلَـعَ البَـدْرُ عَلَينـا مِـنْ ثَنِيّـاتِ الـوَدَاع
وَجَـبَ الشُّكْـرُ علينـا مَـا دَعَـا للهِ دَاع

بَيْنَما كانَ الرَّسُولُ يَرْفَعُ كَفَّيْهِ يَدْعُو اللهَ

قَائلاً : « الحمدُ للهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَنَا في سَفَرِنَا هٰذَا مِنْ أجرٍ وَحسبةٍ » .

وَبانتهاءِ غَزْوَةِ تَبُوكَ انْتَهَتْ غَزَوَاتُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ

* * *